الحركة الإسماعيلية فى اليمن

استقر الأئمة الإسماعيليون فى بلدة سلمية — سوريا ، واتخذوها قاعدة لهم ، ومركزاً لتوزيع تعاليم حركتهم ، بعد أن هاجروا إليها من الجزيرة العربية فراراً من سيوف العباسيين . وقد سموا أنفسهم « القداحيين » وأعلنوا أنهم حجج للإمام المستور المهدى المنتظر الذى ينحدر من الإمام جعفر بن محمد « الصادق » ، وقد ظل هؤلاء الأئمة يقومون بدعوتهم على هذا الأساس واحداً بعد آخر بطريقة سرية خوفاً من العباسيين الذين كانوا يحصون عليهم كل حركة وسكنة ، حتى ظهر الإمام « عبيد الله المهدى » الذى وجّه اهتمامه إلى اليمن ، وعدّها من الأقطار التى يجب أن يكون فيها للإسماعيلية دولة كبرى ، ولهذا يقول أكثر المؤرخين إن نشاط الدعوة الإسماعيلية فى اليمن بدأ فى عهد الإمام المستور « الحسين بن أحمد » والد الإمام « عبيدالله المهدى » ، وداعيه ابن حوشب « منصور اليمن » وعلى بن الفضل الجبشانى ، ولكن لابد من القول بأن بذور هذه الدعوة قد غرست فى اليمن قبل هذا الوقت . ويمكن القول إن الدعاة الإسماعيليين بدءوا نشاطهم فى اليمن

منذ عهد الإمام « محمد بن إسماعيل » ولكن على نطاق ضيق جداً وبصورة سرية. وفى أواخر القرن الثالث الهجرى أصبحت اليمن قاعدة رئيسية لنشر مبادئ الحركة الإسماعيلية فى كثير من بقاع العالم الإسلامى ؛ كمصر والمغرب والحجاز وسواها ؛ وساد الاعتقاد فى تلك الأقطار أن الدولة الإسماعيلية المنشودة ستقوم فى اليمن ؛ وأن المهدى المنتظر سيرفع علمه فى أرجاء تلك البلاد السعيدة ، ولكن الشىء الذى يمكن تقريره فى هذا الصدد هو أن الحركة الإسماعيلية لم تظهر كقوة ذات تأثير فى إقليم اليمن إلا فى عهد الإمام « عبيد الله المهدى » الذى انتقل من سلمية إلى المغرب .

فى تلك الفترة كانت اليمن تابعة للدولة العباسية ، وكان الولاة يتعاقبون عليها من قبلهم ، وكانت صنعاء حاضرة لهم ، ولكن الأمور فيها لم تكن مستقرة استقراراً تاماً ؛ لأن السلاطين والأمراء اليمنيين كانوا يتنافسون فيما بينهم فى سبيل تولى الحكم من قبل الخلفاء العباسيين ، وكذلك فى جزيرة العرب بصفة عامة كانت الأمور غير مستقرة وبسبب الثورات التى قام بها العلويون فى بلاد الحجاز واليمن ، وبسبب ظهور القرامطة الإسماعليين فى بلاد البحرين وبسط سلطانهم على اليمامة وعمان ، وبسبب نشاط الحركة الإسماعيلية فى سلمية — سوريا

وهدفها قلب النظام السائد فى العالم الإسلامى .

وقد كان لهذه الأحداث أثر غير مرضٍ فى الجزيرة العربية بأسرها ، فصارت فى شبه عزلة ، كما تأخرت فى النواحى الاقتصادية والعلمية . ولم يكن فى تلك الأيام ببلاد اليمن بصفة خاصة وحدة سياسية تجمع شمل الأقاليم والولايات التى أنهكتها المنافسات الداخلية والاختلافات المذهبية تحت لواء واحد ، وتقود الجميع نحو هدف واحد ، وكانت الولايات فى هذه البلاد شبه مستقلة عن الدولة العباسية إداريًّا وسياسيًّا لضعف الخليفة عن حربها ، ولكنها لم تستطع الاستقلال عنه دينيًّا ، لأن الولاة كانوا لا يستغنون عن بيعة الخليفة لتثبيت سلطانهم ، فكان بنو زياد يقيمون فى زُبيد ، وهم من ولد عبيد الله بن زياد بن أبى سفيان ، وقد ولى محمد ابن زياد اليمن من قبل الخليفة المأمون العباسى سنة ٢٠٣ هـ ، وكان بنو يعفُر فى صنعاء ، وهؤلاء قامت دولتهم فى اليمن فى أواخر عهد المتوكل ، وكان جدهم عبد الرحيم بن إبراهيم الحوالى نائباً عن جعفر بن سليمان بن على الهاشمى الذى كان والياً للخليفة المعتصم على نجد واليمن ، ولما توفى عبد الرحيم خلفه ابنه يعفُر ، وهو رأس الدولة وباعث استقلالها سنة ٢٤٧ هـ ، واستمر أعقابه فى صنعاء حتى سنة ٢٨٧ هـ وهو من أولاد

التبابعة من حمير . ثم دخل بنو يعفر تحت سيادة بنى زياد حيث استمرّ الحكم فى دولتهم حتى خلع أبو الجيش إسحاق ابن إبراهيم طاعة العباسيين سنة ٢٨٩ — ٢٩١ هـ ، وحلت فى عهده عوامل القلق والاضطراب التى أدت إلى عدم الاستقرار وفقدان الوحدة السياسية ، ومن أهمها ظهور الإمام الزيدى الهادى يحيى بن الحسين بن القاسم الرسّى سنة ٢٨٠ هـ الذى نزل « صَعدة » لنشر دعوة الإمام زيد بن على بن الحسين ابن على بن أبى طالب وقد اتبعه عدد غير قليل من القبائل التى كانت تميل إلى التشيع فصارت الزيدية من يوم ظهوره من أهم العناصر فى حياة اليمنيين ، وهكذا أصبح فى بلاد اليمن بعد ظهور منصور اليمن سنة ٢٦٨ هـ أربع ولايات : الزيادية فى زبيد ، واليعافرة فى صنعاء ، وبنو الرس فى صَعْدَة والدولة الإسماعيلية تحت قيادة ابن حوشب « منصور اليمن » وعلى بن الفضل .

وقد أدّى هذا الاضطراب السياسى إلى كثرة النزاع بين الولايات ، أو بلغة أصح بين زعماء كل ولاية مما زاد الطين بلة ، ومهد لقيام الدولة الإسماعيلية التى ظهرت فى اليمن سنة ٢٦٨ هـ ، وسارت على قواعد من التنظيم البارع .

ونتيجة لظهور هذه الدولة واستيلاء الداعيين منصور

اليمن وعلى بن الفضل فيما بعد على معظم بلاد اليمن ، بالإضافة إلى ما قام به أتباع الأئمة الزيدية من الحروب ، اضطربت الأطراف على عامل العباسيين أبى الجيش ، وخرج زعماء البلاد كل فى جهته ، ولم يسع أبا الجيش أمام هذه الاضطرابات إلا مهادنتهم واعترافه بما تحت أيديهم ، وذلك خضوعاً واعترافاً بسياسة الأمر الواقع . ولم يكن بُعد بلاد اليمن عن بغداد حاضرة الدولة العباسية بأقل أهمية من العوامل السابقة لأن جماعات الشيعة كانت تلجأ فى نشر دعوتها ومبادئها إلى الاستتار والبُعد عن أعداء الدعوة بقدر الإمكان ، وباتخاذ الأقطار البعيدة مكاناً لنشر هذه المبادئ وتعميمها ، وقد وجد دعاة الإسماعيليين فى بُعد اليمن عن مركز الخلافة بغداد وسيلة لتنفيذ مشروعاتهم ، حتى يمكن القول بأن هذا البعد ، بالإضافة إلى وعورة الطريق ، وطبيعة بلاد اليمن الجغرافية المعقدة — كلها كانت من أهم الأسباب التى حالت بين خلفاء العباسيين وبين توجيه الجيوش إلى اليمن لإنقاذها من دعاة الإسماعيليين ، واكتفى الخلفاء بأن عهدوا إلى ولاتهم من جهة ، وتكليف زعماء البلاد من جهة أخرى بالقضاء على هذا التيار الجارف ، تيار الحركة الإسماعيلية ، ولكن الولاة كانوا من الضعف بمكان ، وكان تنازعهم الدائم مع زعماء البلاد المتنافرين من أهم العوامل

التى ساعدت على انتشار الحركة الإسماعيلية ؛ ولهذا كان لعلى بن الفضل الحق بأن يقول عندما عرض عليه الإمام الفاطمى « الحسين بن أحمد بن عبد الله » أن يقوم ببث الدعوة باليمن : « والله إن الفرصة ممكنة فى اليمن ، وإن الذى تدعون إليه جائز هنالك » . هذا ...ومن الواضح تاريخيًّا — كما ذكرنا — فى أكثر من كتاب ، أنه كان لدعاة الإسماعيليين خبرة ودراية باختيار الرجال ، بقدر خبرتهم باختيار الأمكنة الملائمة لنشر التعاليم ، فاتخذوا من مواعيد الزيارة للكوفة ، حيث ضريح الإمام الحسين بن على ، وسيلة لبث مبادئهم وفلسفة عقائدهم ، فهناك ظفروا بمنصور اليمن الذى ينسب إلى عقيل بن أبى طالب وكان يدين بمذهب الإمامية الاثنى عشرية ، فتمكن الإمام « الحسين بن أحمد بن عبد الله » من تحويله إلى الإسماعيلية فى فترة وجيزة ، وهو القائل : « وكان الإمام يخصنى ويقربنى ويرمز بقرب الأمر ودنو النصر » ، فقال له : يا أبا القاسم ؛ البيت يمانى ، والركن يمانى ، والدين يمانى ، والكعبة يمانية ، ولن يقوم هذا الدين ويظهر إلا من قبل اليمن ... يا أبا القاسم ؛ هل لك فى غربة فى الله ؟ قلت : يا مولاى الأمر إليك فما أمرتنى به امتثلته ، قال : اصبر كأنى برجل قد أقبل إلينا من اليمن

وما لليمن إلا أنت ، فقلت : استعن بالله على ما يرضيك .

وجاء على بن الفضل — وكان شاباً جميلا من أهل بيت تشيع ونعمة ويسار — إلى الكوفة سنة ٢٦٧ هـ ، فتمكن الإسماعيليون من ضمه إلى صفوف دعوتهم ، ثم مهدوا له السبيل فذهب مع منصور إلى اليمن ، ويروى التاريخ أن الإمام الفاطمى الحسين أوصى ابن حوشب منصور اليمن بوصيته المشهورة قبل ذهابه : إلى « عدن لاعة » فاقصد ، وعليها فاعتمد ، فمنها يظهر أمرنا ومنها تعز دولتنا ومنها تفترق دعاتنا .

ثم أمره بالاستتار والاعتماد على علم التأويل ، واتخاذ التشيع وسيلة لتحقيق أغراضه ، وأن يقول بقرب ظهور المهدى ، وأن يجمع المال والرجال ، ويلزم الصوم والصلاة والتقشف ، وأن يعمل بالظاهر ولا يظهر الباطن .

وأوصاه أيضاً : إذا ورد عليك ما لا تعلمه فقل : لهذا من يعلمه ، وليس هذا وقت ذكره .

كما أوصاه بعلى بن الفضل خيراً بقوله : هو شاب قريب عهد بالأمر ، فانظر كيف تسوس أمره .

ثم قال لعلى بن الفضل : إن هذا الرجل الذى نبعث به معك بحر علم ، فانظر كيف تصحبه ، واعرف له حقه ولا تخالفه فيما يراه لك .

أجل ... خرج الداعيان من الكوفة إلى القادسية فى نهاية سنة ٢٦٧ هـ . ويقول منصور : لمّا ودعت الأهل والأحبة متشوقاً إلى أقطاع الغربة توجهت ، فلما خرجت من القادسية أوجست خيفة ، ولكنى سمعت حادياً يقول :

يا حادي العيس مليح الزجر بشرْ مطاياكَ بضوء الفجر

فسررت واستحسنت ذلك الفأل لمّا سمعته . ثم وفيت مكه ، ومنها تابعت مع على بن الفضل السير جنوباً حتى وصلنا سنة ٢٦٨ هـ إلى بلدة « غلافقة » وكانت فى ذلك العهد بندراً لمدينة زبيد على ساحل البحر الأحمر .

ثم افترقا على أمل أن يتصل كل واحد منهما بصاحبه ليتعرف أحواله ، فاتجه منصور اليمن إلى مدينة « الجنَد » وكانت غايته « عدن لاعَة » . ولما وصل إليها سأل عن الداعى « أحمد بن عبد الله بن خليع » الذى كان قائماً بالدعوة الإسماعيلية قبله ، فعرف أنه مات بالسجن عندما قبض عليه الأمير ابن يعفُر ، فنزل فى داره وتزوج ابنته ، وهذا يدل على أن الدعوة الإسماعيلية قد تسربت إلى اليمن قبل وصول الداعيين . والتاريخ هنا واضح يشير إلى أن الداعى الإسماعيلى السورى الكبير أبا الفوارس الذى استوطن سواد الكوفة ، وقام بأعمال باهرة عظيمة هنالك قد أنفذ ولده

داعياً إلى اليمن ، فأظهر العجائب ، ودخل فى دعوته خلق عظيم . ثم مشى بالأقاليم فتحاً حتى أجلى بعض الأمراء عن حصونهم ومناطقهم ، ثم إنه قاتل « القاسم بن أحمد بن يحيى بن القاسم ابن إبراهيم الحسينى الهادى » ، وأزاله عن عمله من « صعدة » ففرّ منها بعياله إلى الرس ، وعندما أراد الجيش الإسماعيلى بقيادته وقتئذ إتمام مهمته بفتح البلدان والأقاليم ، أصيب وهو يجتاز إحدى المناطق الجبلية بالبرد والثلج ، فهلك أكثره فى ليلة واحدة ، وبعد ذلك مات الداعى الإسماعيلى الصنادبقى ، وكان قد احتلّ أيضاً مدناً وقرى كثيرة ؛ وكان موته بسبب الفصد الذى أجراه له أحد الأطباء ، وكان قد أرسل من قبل القائم العباسى لهذه الغاية ، أمّا على بن زكرويه (صاحب الخال) ، وهو من دعاة القرامطة الإسماعيليين ، فقد فرّ من سواد الكوفة إلى اليمن ، وجمع صفوفه هناك ، ثم قام بالزحف على البلدان والأقاليم فتغلب على الكثير منها ، وأخيراً توفى فى اليمن قبل أن يتم رسالته .

يستدل من كل هذا على أن الحركة الإسماعيلية قديمة فى اليمن وقبل منصور وعلى ، وما هما بالحقيقة إلا متممان للبناء الذى أشاده غيرهما من الدعاة الإسماعيليين المؤسسين .

ومهما يكن من أمر فإنه لمن المفيد بمكان أن نأتى

بإيجاز على ما قام به الداعيان منصور اليمن وعلى بن الفضل من أعمال فى اليمن وما باشراه من حروب ، ثم كيف انتهى أمرهما أخيراً ؛ وذلك لعلاقته المباشرة بالموضوع . فمن الواضح أنهما قد نهجا نهجاً واحداً فى نشر دعوتهما ، وبعد عامين من وصولهما أصبح لكل منهما جماعة كبيرة تأتمر بأمره ، وتخلص له أشد الإخلاص ؛ وطبيعى فى مثل هذه الأحوال أن يصبح همّ كل منهما الحصول بعد ذلك على الأموال الكافية لتنفيذ الأغراض ونشر المبادئ والأفكار ، والاستيلاء على المراكز الهامة والمواقع الحساسة . فأصدر منصور أوامره بجمع الأموال وفق الطريقة المتبعة فى المشرق ، وهكذا فعل على بن الفضل وبعد فترة قصيرة تمكن منصور من احتلال « عبر محرم » ، ثم جمع جمعاً من أتباعه واستولى على جبل « الجميحة » ، وبعدها هاجم « بيت ريب » ، وهو رأس « مسوَر » ثلاث مرات حتى استولى عليه ، وكانت هنالك خطط مدبرة تقوده من نصر إلى نصر .

ويقول تاريخ اليمن إنه عندما استولى على جبل مسوَر من أعمال صنعاء ، كان معه ثلاثة آلاف محارب فبنى فى هذا الجبل حصناً وجعله قاعدة لشن الهجمات على المواقع الأخرى ، ومن ثم استمر فى زحفه حتى استولى على بلاد

« عيان » و« بنى شاور » و« حملان » ، ثم على « ذخّار » وملك « شبام حمير » وجبل « كوكبان » ؛ وهنا أقبل عليه الناس يدخلون فى طاعته طوعاً أو كرهاً ، فانضوى الكثير من بنى يعفُر ، وملوك حمير فى الدعوة طائعين أو كارهين وقويت فى أرض اليمن دعوته ، وعلت كلمته .

ولم يقف نشاط منصور عند هذا الحد بل أرسل جيشاً لمساعدة ابن الفضل حين أحيط به قرب « تهامة » وكان من أثر ذلك أن عاد ابن الفضل سالماً إلى مركزه ، وكان قد احتل « لحج » و« أبين » ودخلت قبائل مذحج فى طاعته ، وأخيراً احتل « المذيخرة » سنة ٢٩٤ هـ ثم دخل حصن « التعكر » ، ومنه جاء إلى بلاد « يحصب » فدخل « منكث » ثم هجم على صنعاء ، ودخلها لأول مرة سنة ٢٩٥ هـ .

ولم يقف طموح ابن الفضل عند هذا الحد ، بل استمر فى فتوحاته حتى دانت له جميع بلاد تهامة وزبيد ، وفيها قتل عامل العباسيين يومئذ واسمه « المظفر بن الحاج » .

ويصادف فى هذه الأثناء أن يكون الإمام « عبيد الله المهدى » قائماً بشئون الإمامة الإسماعيلية فى سلمية — سوريا ، وهذا الإمام وضع ثقته بمنصور اليمنى دون على ، فكان يخصه بكل عطفه ، ويعطيه المسئولية الأولى المباشرة عن شئون الدعوة فى اليمن معتبراً ابن

الفضل دونه فى الرتبة . فكلفه إرسال الدعاة من قبله إلى الأقاليم الهامة ، فبعث منصور ابن أخيه الهيثم إلى السند حيث استقر فى ملتان . وغرس فيها بذور الدعوة ، واستجاب له الكثير من أهلها ، وأرسل محمد بن عبد الله بن العباس داعياً إلى مصر ، فوزع الدعاة فى سائر أرجائها . وفى تلك الفترة بالذات أرسل الإمام المهدى إلى اليمن « أبا عبد الله الشيعى » فتتلمذ على منصور لعدة أشهر ، ومن هنالك ذهب إلى المغرب وبرفقته أبو الملاحف الذى عاد لفوره بسبب مرض والدته ، فسير مكانه إبراهيم بن إسحاق الزبيدى ، وكان منصور قد أرسل الداعيين أبا سفيان والحلوانى من قبل .

واستمر الداعيان منصور وعلى يعملان فى اليمن بهمة ونشاط حتى أصبح الجزء الأكبر منه خاضعاً لنفوذهما .

هذا ... ويحدثنا التاريخ أن الإمام المهدى لما أرسل الداعى ، « أبا عبد الله الشيعى » إلى اليمن ليتدرب على يد منصور أوصاه بقوله : « امتثل سيرته ، وانظر إلى مخارج أعماله ومجارى أفعاله فاحتذها وامتثلها واعمل عليها » فأقام عنده يشهد مجالسه ، ويأخذ منه ، ويخرج معه فى غزواته لا يفارقه حتى بعثه أخيراً إلى المغرب ، وكان منصور قد أرسل من قبله الداعيين الحلوانى وأبا سفيان إلى شمالى أفريقيا ،

ولما علم بوفاتهما قال لأبى عبد الله الشيعى : إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلوانى وأبو سفيان ، وليس لها غيرك الآن ، فبادر فإنها موطأة لك ممهدة .

هذا ... وللدلالة على أن اليمن كان لها أهمية كبرى بنظر أئمة الإسماعيليين ، أن الإمام عبيد الله المهدى حين هجر سلمية إلى المغرب ، فكر بأن يذهب إلى اليمن ويستقر فيها ويجعلها عاصمة لملكه ، ولكن انحراف على بن الفضل ، وخروجه على الدعوة ، جعله يعدل برنامجه ويتجه من القطر المصرى إلى شمالى أفريقيا .

ونعود لنذكر شيئاً عن مدى علاقة على بن الفضل بالأئمة الفاطميين ، وسبب خروجه فنقول : إن علياً لما استقر باليمن ظل على ولائه للدعوة الإسماعيلية فى سلمية ، وقد كان يظهر التقشف والورع والتقوى ، فكان نهاره صائماً وليله قائماً ، فأنس إليه وأحبه كل من عرفه ، ثم إن أتباعه قلدوه أمرهم ، وجعلوا حكمهم إليه ، وقد جاءوه مرة طالبين إليه أن ينزل من حصنه فى جبل « سرويافع » ويسكن بينهم فقال : لا أفعل هذا ، ولست أسكن بين قوم جهال إلا أن يعطونى العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر ، ففعلوا له ذلك وحلفوا له على الطاعة ، وألا يخالفوه بما أمر فوعدهم خيراً .

ومن هذا نرى أن ابن الفضل ظل مدة فى بلاد اليمن على ولائه للدعوة الإسماعيلية وهذه المدة لاتقل عن عشرين عاماً.

وقد اتهم بعض المؤرخين ابن الفضل أنه أحل لأصحابه شرب الخمر ونكاح البنات والأخوات ، كما أظهر المجوسية ، وكفر بما أنزل الله عز وجل ، إلى ما هنالك من أقوال وتهم لا مجال لها فى هذا الكتاب .

ومن المضحك المستغرب أنهم يروون أنه لما دخل « الجند » خطب شاعره على منبرها فقال :

خذى الدف يا هذه والعبى وغنى هزاريك ثم اطربى
تولى نبىٌّ بنى هاشم وهذا نبىٌّ بنى يعرب
لكل نبى مضى شرعةٌ وهذى شرائع هذا النبى
فقد حط عنا فروض الصلاة وحط الصيام ولم يتعب
فلا تطلبى السعى عند الصفا ولا زورة القبر فى يثرب

ومهما يكن من أمر فكل هذا لانراه جديراً بالبحث عن على بن الفضل . فنحن تهمنا فتوحاته ، وسبب إعلانه الاستقلال عن الدعوة الإسماعيلية وخروجه على رفيقه فى الجهاد.

من المعروف أن « على بن الفضل » كان ذا شخصية بارزة ، وقائداً بارعاً ، وحاكماً ناجحاً ، ووطنيًّا متحمساً ، فخوراً بقحطانيته ، ذا سياسة بارعة حكيمة فى السلم والحرب ،

وصاحب شهامة وإقدام وإيفاء للعهود والمواثيق وحماية المظلومين ونصرة مبادئ الحق .

ولم يستطع منصور اليمن أن يقلل من نفوذه ، أو يعزله عن الدعوة . أو يطرده من اليمن وهو يعلم علم اليقين ميوله الاستقلالية وآراءه المتطرفة فى الحكم ، بل على العكس كان مضطراً إلى مساعدته فى حروبه ؛ وتهنئته على انتصاراته ، حتى أعلن ابن الفضل نفسه ثورته وخروجه على الدعوة .

وقد يكون بعيداً عن الواقع أن يقبل المجتمع اليمنى رئاسة ابن الفضل مدة عشرين سنة أو أكثر لو أنه كان يرتكب ما نسب إليه من الفواحش ، وقد يجوز أنه بالغ فى يمنيته ، وتطرف فى قحطانيته ، حتى تعدى حدود الدين ، أو أن نفسه العالية أنفت أن ترضخ لحكم أحد ، أو تدخل تحت نفوذ أى إنسان ، بجانب إيثار الإمام عبيد الله المهدى منصور اليمن دونه . كل هذا — كما أعتقد — شكل الأساس لهذه القضية .

أما بالنسبة للدعوة الإسماعيلية فإنها عدته قد نكث العهد واستهواه الشيطان وأضله ، ففارق الدعوة ، وخرج من الملة ، وافترى على الله وعلى أوليائه ، مقتدياً بالمضلين من قبله الذين كانوا له شر أسوة ، واستمال الجهال فكانوا له الأنصار والأتباع ، وارتكب المحارم ، ومال إلى الإباحات ، وكفر بعد إيمانه ،

وباء بلعنة الله .

ولا يمكننا ونحن فى معرض الحديث والمقارنة أن نقارن ما قام به ابن الفضل إلى ما قام به زميله منصور اليمن الذى ظل على ولائه للأئمة الفاطميين حتى وفاته . فكان دائم الاتصال بهم فى جميع المناسبات ، يتلقى أوامرهم ، ويستعين بإرشاداتهم ، متمسكاً بقوانين الدعوة ، مطيعاً لأوامر من هم أعلى منه رتبة فيها ، قائماً بأداء واجباته المفروضة عليه فى سبيل دعوة آمن بها ، واعتقد بقدسيتها ، بعكس ابن الفضل الذى ظل يخادع منصور اليمن ويماطله ويقول له : « إنما أنا سيف من سيوفك » ، والمنصور يهابه ، ويخافه على نفسه لما يرى من شهامته وإقدامه . وتمشياً مع هذه السياسة أظهر منصور فرحه لما فتح ابن الفضل صنعاء سنة ٢٩٩ هـ ، واجتمعا وتشاورا فى فتوحهما ، وكان منصور حذراً ويقظاً يرى أن وقف الحرب والفتوح من قبلهما فيه مصلحة كبرى لهما ؛ لأن نفوذهما فى البلاد التى فتحت لم يكن قد رسخ ؛ وكان يخاف أن يدخل فى حرب جديدة ، فتكون النتيجة خروج البلاد التى فتحوها من تحت أيديهم ، فقال لصاحبه ابن الفضل : قد ملكنا اليمن بأسره ، ولم يبق لنا إلا القليل ، فعليك بالتأنى والوقوف بصنعاء سنة ، وأنا بشبام فيصلح

كل واحد منا ما استفتح وبعد ذلك يكون لنا نظر ؛ فإنك إن خرجت من صنعاء خالف أهلها، وفسد علينا ، ماملكنا . ولكن ابن الفضل حارب مخاليف البياض بتهامة ، وكاد يقع لقمة سائغة فى أيدى أعدائه ؛ لولا أن أسرع منصور اليمن إليه ؛ وقدم المساعدات ، كما سبق أن ذكرنا .

ولما تمكن نفوذ ابن الفضل ؛ وأضحى سيد اليمن الأول ، أعرب عما يجيش فى نفسه من رغبة ملحة فى تكوين دولة يمنية مستقلة عن العباسيين والفاطميين معاً . كما فعل أبوسعيد الجنابى الذى كون أول دولة إسماعيلية مستقلة فى البحرين ، فكتب إلى منصور قائلا : « إن لى بأبى سعيد الجنابى أسوة ، وأنت إن لم تنزل إلىّ ، وتدخل فى طاعتى ، نابذتك الحرب » .

فكتب إليه منصور يعاتبه ، ويذكره بالعهود والمواثيق التى أخذها عليه الأئمة ، كما ذكره بخطر التفكك ؛ كيلا يتلاشى أمر الدعوة الإسماعيلية باليمن . وقال فى كتابه : كيف تخلع طاعة من لم تر خيراً إلا ببركة الدعاء إليه وقد أعطيناه من العهود ما قد علمته ؟ فأجابه ابن الفضل بقوله : إنما هذه الدنيا شاة ، ومن ظفر بها افترسها .

وتابع منصور إرسال الرسل إليه يعظه ويذكره وينهاه ، ولكنه ظل على التمادى فى إنكاره . وتناهى فى إصراره ،

وكان معنى ذلك بدء الصراع بين الداعيين الإسماعيليين فى اليمن أو بعبارة أصح بدء الصراع بين أهل الدعوة أنفسهم الموالين للفاطميين والخارجين عليهم ، كما أن معنى ذلك إنذار إلى منصور بأن يستعد للقتال ، فما كان منه إلا أن حصّن بلاده ، ولا سيما جبل مسوّر ، وعول على أن يلاقى الصدمة وحده ، لأن الخليفة الإمام عبيد الله المهدى الفاطمى لم يكن قادراً فى هذه الفترة ، وهو بشمال أفريقيا ، على إرسال أية مساعدة .

وقامت أخيراً الحرب بين الداعيين سنة ٢٩٩ هـ ، فاستولى منصور اليمن على شبام حمير ، وحاصر بلدة الظلمة ، حيث كان ابن الفضل وأتباعه ، وقطع الميرة عنهم حتى أصابهم الجوع الشديد ، فأكلوا لحم الحمير والجلود ، ثم أخذ يتتبعهم من مكان إلى مكان ، كما روى المؤرخ إدريس عماد الدين.

وكان بينهما بعد ذلك وقائع كثيرة وقتال شديد، ثم قوى أمر ابن الفضل أخيراً فملك صنعاء ، وتمكن فى النهاية من محاصرة المنصور ثمانية أشهر حتى مل المقام ، فلما علم المنصور بذلك طلب الصلح ، فقال ابن الفضل : لست أبرح — وقد علم أهل اليمن قصدى لمحاصرته — إلا أن يرسل إلى بعض ولده ، فيكون ذلك لى مخرجاً عند الناس ، ويعلمون أنه قد دخل فى

طاعتى . فأرسل إليه ولده ودفعه بالتى هى أحسن . فرجع ابن الفضل إلى المذيخرة وأقام عنده ولد المنصور سنة ثم رده أخيراً إلى أبيه .

ومهما يكن من أمر فإن هذا الصلح لم يقض على النزاع بين الطرفين . بل زادت هوة الخلاف اتساعاً بين أتباع الدعوة الإسماعيلية فى اليمن نفسها . ومن ثم أصبح الجميع هدفاً لمجهات المنافسين ثم فى الحكم من الأمراء وطلاب الزعامات فى اليمن .

هذا ... وهناك قول يمكن الأخذ به عند بحث هذا الموضوع ، هو أن ابن الفضل إنما خرج عن طاعة منصور اليمن مدفوعاً بتأثير الداعى الإسماعيلى للقطر المصرى « فيروز » الذى زين له حب الرئاسة والزعامة والاستقلال بحكم اليمن وحده. ولكنه لم يتمكن من التغلب على أعدائه والانفراد بالزعامة ، وبذلك لم تتحقق مطامعه . بل أخفق فى تكوين دولة ثابتة الأركان تصمد أمام العواصف والأنواء . فظل لذلك حتى قتل مسموماً بيد أحد الأطباء سنة ٣٠٣ هـ .

وبعد وفاته زحف الأمير أسعد بن أبى يعفُر إلى صنعاء . وحارب أتباعه وقتلهم واحداً إثر آخر ، ثم أرسل رءوسهم إلى مكة حيث عرضت فى موسم الحج . أما منصور

فبقى أميناً على عهده للفاطميين . ولكن مركزه تضعضع ، فالتجأ إلى مسور . وأقام مع أتباعه فى الأماكن الحصينة النائية يدافع عن نفسه دون أن يستطيع التقدم خطوة واحدة ، متخذاً التستر والتقية وكتمان السر طريقة له فى نشر دعوته ، حتى وافته المنية سنة ٣٠٦ هـ .

خلفاء منصور وابن الفضل

من الجلى الواضح أن ثورة ابن الفضل على الدعوة الإسماعيلية ، كانت من أهم العوامل التى أدت إلى إضعافها ، وشل نشاطها وتقدمها ، وذلك لأن أعداء الدعوة والمتربصين بها اتخذوا من الحرب الداخلية فرصة لشن الهجوم على أنصارها كافة ؛ وعندما ظفروا بهم أعملوا فيهم القتل والنهب والتهجير ، وزادت الأمور تعقيداً بعد وفاة منصور اليمن ، فقد برز إلى المجال الاختلاف الذى وقع بين أبنائه وبعض الدعاة على المنصب . ومن المعلوم أن المنصور قبل وفاته رشح « عبد الله الشاورى » للقيام بشئون الدعوة بعد وفاته ، وذلك بكتاب أرسله إلى الإمام « عبيد الله المهدى » فى المغرب ، فى حين أن ولده « حسن » كان يعتقد أن هذا الأمر بعد وفاة والده صائر تلقائياً إليه ،